إن خذلت فدمك مهدور

«خذل علينا فإن الحرب خدعة».

مثّلت هذه المقولة متبنّى إسلامياً حربياً هاماً في مواجهة الأعداء، إذ أن دسّ المسلم كعين في صفوف الأعداء يتطلب إعطاءه هامشاً كبيراً للمناورة التي ليست لغيره، وقد يصل الأمر كما عند بعض من جنّدهم النبي صلى الله عليه وسلم لذلك، إلى ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسوء، ويتوقف ذلك على ما تتطلبه الظروف، وفي حالات معينة يجوز للمسلم أن يقول غير ما يعتقد، كما في حالة الإكراه، «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان»، والمهم ألا ينزاح القلب إلى ما انزاح إليه اللسان، مما لا يتوافق مع الشرع.

إن سليمان عليه السلام ـ وكان ملكاً ـ قد اعتمد مثل هذا، فقد تنازعت عنده امرأتان حول صبي، كل منهما تدعي أنه ابنها، فقال سليمان عليه السلام: «إيتوني بالسكين أشقه شقين ولتأخذ كل واحدة نصفاً من الجسد المشقوق».. وأمام هذا التهديد خافت الأم الحقيقية على ابنها، وتنازلت عن حقها للأخرى، أما الأخرى فقبلت بشق الولد، فظهر أنها ليست أمه، إذ لو كانت أمه لرحمته... وعرف سليمان الحق وقضى به.

ولم يكن من الجائز لسليمان أن يشق الولد لمثل هذه المقاضاة، غير أن ذلك كان منه مجرد هامش كلامي لاستخراج الحق.

إن المسلمين اليوم يعيشون حرباً فعلية مع أعدائهم، وفي فلسطين

يحتدم الصراع، وتشتد الحرب، وفي الحرب يجوز التخذيل... فلنفترض أن أحد المنتمين إلى الجماعات الإسلامية المقاومة أراد الوصول إلى قلب العدو بعملية نوعية، وصرح بتصريحات تعد في ظاهرها خيانة، للوصول إلى مبتغاه.. فماذا يكون؟!!

ستكون الصورة على هذا الشكل:

بعد ربع ساعة من تصريحاته ستتناقل كل وسائل الإعلام الخبر، ويجري تحليله.. وتصدر الجماعة الذي ينتمي إليها بياناً لفصله من التنظيم، وإخراجه من الدين، وطرده من رحمة الله تعالى، وفتوى لإخراجه من حيز الحياة الدنيا... بل إن جماعات أخرى قد لا تعرف دوافعه، ستخرج بعد وقت لا يصلح للتريث والتبين، لتقول الكثير، وقد يُغتال المسكين من طرف المسلمين انتقاماً قبل أن يصل إلى هدفه ومبتغاه.. فأين هامش التخذيل اليوم؟!!

إن المشكلة عند الجماعات الإسلامية أنها لا تدرك أنها تعيش واقع حرب، لا واقع سلام، وأن فقه الحرب هو الذي يجب أن يكون معمولاً به.

إننا هنا نعطي مسألة واحدة وهي مسألة «التخذيل» لندرك مقدار ضعف الأداء الذي يعيشه المسلمون، لكن هناك مسائل كثيرة لا بد من مراجعتها وفق المنظور الإسلامي.. وإلا ضاع الجمل بما حمل، ولكان المسؤول عن ذلك هو أخطاؤنا لا قوة عدونا.

إن المشكلة فينا.. والمشكلة الأكبر هي أننا لا ندرك أن المشكلة فينا.

إن القرآن الكريم يرجع الانتكاسات إلى تقصير أصحابها، قالوا: «أنى هذا؟ قل هو من عند أنفسكم»، «فبما كسبت أيديكم»..

أما نحن فنرجع الانتكاسات إلى الآخر (العدو) فهو الأقوى والأشد و.. و.. فهل ينتظر من عدو يدخل الحرب أن لا يكون قوياً إن كان عاقلاً؟!!

ثم لنفترض أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يستطع أن ينهي دولة الكفر بما جاء به من النور، فهل سيذهب بالتبرير إلى أن صف الشرك شديد؟! وهل سينتظر من أعدائه أن يرخوا من شدتهم قليلاً ليستطيع الانتصار عليهم؟!! هل هذا مبدأ صراع وتدافع؟!!هل نقول لإسرائيل تخلصي من جزء من ترسانتك لنستطيع مقاومتك وإخراجك؟! أم الواجب أن نقول لأنفسنا لنتخل عن جزء من اعتباطنا وسلبيتنا وأن نزيد جزء من الجهد والفكر والفهم والجد إلى واقعنا لننتصر.

إن النصر يرجع إلى قوة الأنا لا إلى ضعف الآخر، هنا يحضرني قول محمود درويش:

«قل مع القائل
لا أسألك عبئاً هيّنا
يا إلهي.. أعطني ظهراً قوياً..»

فهل الحزم أن تدعو بأن يكون حملك هيناً؟ أم الحزم هو أن تدعو بأن يكون ظهرك قوياً ولا يهمك الحمل بعد ذلك لأنه لن يعجزك مهما كان.

إنها فلسفة الأصل والفرع في فهم الأمور، فمتى نلبس للحرب لبوسها فعْلاً..؟!!